**المحاضرة 04**

**الاستشراق وتاريخ الأدب العربي**

**مدخل نظري:**

**التحقيب السياسي عند المستشرقين :**

نسعى في هذه المحطة، القيام بعملية تحليل لهذه الدعامة الأساسية ضمن مدونات المستشرقين في تاريخ الأدب العربي، وبالضبط حول ارتباط الخطاب الاستشراقي بأطروحة المركز والهامش.

إن (الحقبة) مرحلة زمانية قد تطول وقد تقصر، وهي "مدة زمانية فاصلة بين تاريخين منساوبين إلى تقويم محدد، مرتبطة بمستوى معين من الفعالية البشرية؛ الفن، أو السياسية، أو الإنتاج المادي, أو الأدب". والحقبة المرتبطة بفعالية الأدب، تستوجب الإطار التاريخي العام الذي تنسب إليه، فهى منه وإليه، ومن ثم فإنه أثناء دراستها لا بد من مراعاة ما قد ينتج عن ذلك من تداخلات وصراعات, وتأثیرات اجتماعية وسياسية, وغيرها, بمعنى أنه يجب إبعاد مفهوم سكونية الحقبة الأدبية أو تعاليها، وبالتالي نقاوتها أو صفاؤها"، فهي جزء من نسق ثقافي مجتمعي تؤثر فيه وتتأثر به، فتأخذ سماته, وتوصف به.

والواقع أن الحقبة أداة منهجية ضرورية في الممارسة التاريخية، جاءت كنتيجة للوعي التاريخي الذي شاع وانتشر بشدة في الفكر الأوربي عامة، ومن فوائدها أنها تتيح للباحث التاريخي شيئا من الاطمئنان والثقة، حينما يضع الحدود الضرورية الموضوعة لحقبة محددة.

ولو نقبنا عن تكريس هذا الإجراء في التراث العربي، جاز مطابقته مع فكرة (الطبقات)، وهي الفكرة التي أحاطها القدامی بمجموعة من الضوابط والمعايير، منها الزمان، المكان، الدين، الكثرة والقلة, وغيرها, وتكمن الأهمية الإجرائية للتحقيب في أنه يعتبر وسيلة علمية تحريبية حتى لاستقصاء وقائع موضوعنا (تاریخ الأدب), وتأطير هذا الموضوع، على اعتبار أن التحقيب فرضية وأداة للعمل, وتشييد للموضوع, أداة افترض فيها قوة إجرائية ونظرية, تمكننا أكثر من غيرها من معالجة ظاهرة تاريخ الأدب ".

والتحقيب في الأدب يراعي المقاصد الكبرى لمؤرخ الأدب، ويراعي المناهج المتبعة في ذلك, فكل تحقیب للأدب يتوخی إنتاج مادة أدبية لها دلالتها الخاصة في الزمن، فقد تكون هذه المقاصد مرتبطة أكثر بالدين، أو السياسية أو الاجتماع، أو تكون مرتبطة فقط بالمستوى الفني والجمالي قبل كل شيء", فإذا كان ذلك كذلك فما هي أهم مقاصد المستشرقين في اعتمادهم على التحقیب السياسي, دون غيره من أشكال التحقيبات الأخرى؟ وكيف استطاعوا أن يصوروا لنا تاريخ الأدب العربي من خلال هذه الأداة؟ وكيف شيد الخطاب الاستشراقي تاريخ الأدب العربي؟

إن الاستشراق خطاب إيديولوجي من ورائه سلطة، ولن يحيد هذا الخطاب عن الخط الذي حددته له فلسفة هذه السلطة، وقد انحسرت بقية المفاهيم التحقيبية الأخرى وانتشر استعمال هذا النوع من التحقيب، بسبب عملية القيادة والنمذجة التي خضع لها منذ بواكير الممارسات الأولى لدى الأوربيين، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حينما سارعت كل دولة من الدول الأوربية الثلاث الكبرى آنذاك: فرنسا وبريطانيا وألمانيا، إلى بناء تاريخها الأدبي الخاص، معتمدة منظومة من القوانين تتوخى مبدأ التنظيم والتصنيف والتجريب، وهي المنظومة التي سيعتمد عليها الفكر الأوربي في نمذجة مختلف المجالات المعرفية للشرق، بما فيها الأدب وتاريخه، وكان سلاحها انطلاقا من هذا المنظور الأوربي، أقبل المستشرقون على عملية تنظيم وتصنيف الأدب العربي وتاريخه، في إطار تعاقب زمني، ولكنه تعاقب مرتبط أساسا بالأحداث السياسية، بمختلف أشكال هذه الأسر الحاكمة، الثورات السياسية، الانقلابات، التغيرات التي تمس هرم السلطة وغيرها.

وبذلك نمطوا تحقيبا خاصا بتاريخ الأدب العربي، غلبوا فيه التحقيب السياسي عامة، ومرحلوا تاریخ الأدب إلى عصور أدبية أخضعوا فيها الأدب للسياسة وتقلباتها، وبذلك جنوا على البعد الجمالي والفني للنصوص الإبداعية، وجعلوا صعودا وهبوطها تبعا للتقلبات السياسية، بل وحكموا عليها أحكاما تطورية من خارج بنيتها اللغوية, واعتمدوا في ذلك تاريخ الأدب العربي بمعناه (العام)، فأرخوا للحياة العقلية, والسياسية, والدينية, والاجتماعية, والاقتصادية, والعلمية, إلى جانب تأريخهم للأدب بمعناه (الخاص) من شعر ونثر .

أشار عديد الدارسين إلى أن أول كتاب صدر عن تاريخ الأدب العربي، وفيه تكريس التحقيب السياسي، هو كتاب (تاريخ الأدب العربي إلى القرن 12ه) في سبعة أجزاء، ليوسف هامر بورجشتال النمساوي، وقد طبع في فينا سنة 1850.

ثم تلته كتب في تاريخ الأدب العربي هي :

* كتاب (تاريخ العمران المشرق وعصر الخلفاء) سنة 1877 الفريدفون كريم Alfred von Kremler (1828- 1885م).
* كتاب (التاريخ والأدب العربي) للإنجليزي اربنت سنة 1890،
* کتاب (تاريخ العرب وآدابهم) من تأليف : إدوارد فانديك وفیلییدس قسطنطين سنة 1892.
* تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان سنة 1898, وهو الكتاب الذي كان له بالغ التأثير وفعل القيادة على ما جاء بعده، من سائر التأليفات التي كانت خلال القرن العشرين، وهو العلامة البارزة والأساسية في هذا السياق.

ففكرة التقسيم السياسي للعصور اربطت بتفكير المستشرقين في مرحلة أولية، ثم الأكاديميين في مرحلة ثانية.

إن العديد من الدارسين والنقاد العرب، قد درسوا هذه الظاهرة، ويكاد يكون شبه إجماع على عدم ملاءمة هذا التحقيب السياسي في التأريخ للأدب. "لقد كبل المقياس السياسي التاريخ الأدبي بقيود القوانين, وحاصره بتأثير العامل الواحد، فالمعيار السياسي الذي ندرس العصور الأدبية من خلاله, جعل الأدب ظلا للسياسة بفرضها العامل الأوحد، في تحديد العصور الأدبية وسماتها الفنية، وإن من الغلو بل من الخطأ الفادح الاعتقاد أن عاملا واحدا يشكل حقيقة أو ظاهرة حياتية، فالعامل السياسي الذي جعلوه مقياسا للتاريخ الأدبي, لم يكن صحيحا عند دراسة الازدهار الأدبي الذي شهده القرن الرابع الهجري -مثلا-, رغم فساد الحياة السياسية في ذلك القرن، فالسياسة ليست إلا عاملا واحدا من عوامل التأثير, وليست كل العوامل.

ويعترف الدكتور محمد الكتاني بأسبقية المستشرقين في مجال تاريخ الأدب، فيقول : "ومن الحق أن تعترف بأن التأريخ للأدب العربي وفق الأسلوب المنهجي المعروف في التأريخ للآداب، إنما كانت ريادته الأولى على يد هؤلاء المستشرقين، ثم نحا مؤرخو الأدب العربي من العرب في العصر الحديث منحى أولئك المستشرقين، واستفادوا إلى حد كبير من أعمالهم، وفي مقدمة هؤلاء جرجي زيدان في كتابه عن تاريخ آداب اللغة العربية، الذي استفاد من تاريخ الأدب العربي لكارل بروکلمان وغيره.

ومن أبحاث المستشرقين في مجلات الجمعيات الأسيوية".. , ثم يقر الكتاني بحقيقة تاريخية أثبتها عديد الدارسين، وهي "أن الدراسات المتعلقة بتاريخ الأدب العربي الجديرة بالتقدير، لما توافر فيها من الموضوعية وعدم التحيز، والتحليل التاريخي قليلة جدا، وربما كان في مقدمة المستشرقين الذين أنجزوا دراسات عن تاريخ الأدب العربي، المستشرق الفرنسي بلاشير ، والمستشرق كارل نلينو، أما غيرهما

فكان إما متحيز لأطروحة التشكيك في صحة الشعر الجاهلي، والإنكار لإصالة العرب الأدبية بالمرة، وإما جماعة لمختلف آراء المستشرقين قبله بغير تمحيص أو تدقيق"

دراسة الأدب العربي :

لقد تبين لنا مما تقدم مدى أثر الاستشراق في أدبنا الحديث ، والمنهج العلمي السليم يتطلب منا الآن أن نكشف مزيدا من هذا التأثير, ومما لا شك فيه مطلقا أن المسائل التي تعرضنا لها فيما مضى تؤكد ذلك تماما وهكذا نستطيع أن نفهم الأمر الذي جعل طه حسين يسأل منذ نصف قرن : كيف تتصور أستاذا للأدب العربي لا يلم ولا ينتظر أن يلم بما انتهى

إليه الفرنج من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاریخ الشرق, وآدابه. ولغاته المختلفة ؟

ولم يقف عميد الأدب عند هذا الحد, بل قال : إنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولابد من التماسه عندهم، حتى تباح لنا نحن أن نهض على أقدامنا، وتطير بأجنحتنا ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا, وآدابنا,ا وتاريخنا . ، وقد حدث هذا حقا منذ قرابة ربع قرن من الزمن .

ومن هنا يبدو هذا التأثير جليا وعظيمة في الوقت نفسه, وقد يحكى ذلك في كل ما يتصل بالأدب العربي وتاريخه، جمعه وتنظيمه، تأثره، وتأثيره, وهكذا يتضح لنا جليا أن أبرز النواحي لأثر الاستشراق في الأدب العربي المعاصر تتجلى في مايلي:

1 : التأريخ للعصور الأدبية .

2 : تأليف دائرة المعارف الإسلامية .

3 : الفهرسة للمعاجم العربية .

4 : البحث في تأثير الأدب العربي .

وإذا كان الأمر كذلك فلنبحث إذن أثر الاستشراق في الدوائر المذكورة على قدر الإمكان والايجاز.

**التأريخ للعصور الأدبية:**

ليس من السهل مطلقا الإحاطة بكل نواحي الأدب العربي ، ويرجع ذلك إلى مشاكل كثيرة يواجهها مؤرخ هذا الأدب، فمثلا كل من يحاول أن يؤرخ للأدب العربي, لابد أن يواجه مشكلة أدبه الجاهلي الذي ظل أدبا مرويا لقرون، حتى تعرض العلماء الأجلاء لتدوينه وحفظه معا, وحدث ذلك بعد ظهور الإسلام بقرنين أو يزيد, وإذا كان التدوين قد بدأ فعله في أواخر أيام الأمويين, فقد كان للأدب العربي نصيب عظيم الشأن في هذا النشاط العلمي الرائع حقا, ومنذ ذلك الحين انكب العلماء على هذا الأدب, يضعون فيه أعمالهم الجليلة حتى أصبح ترائه من أغنى أنواع المعرفة, وأكثرها إثراء.

وبجانب تلك المشكلة التي ذكرناها, هناك مشكلة أخرى لها خطرها للأدب, وهي مشكلة التاريخ السياسي الذي لم يكتب فيه كما يجب أن يكتب حتى الآن، وإذا أخذنا في الاعتبار ما لهذا التاريخ من أهمية لتفسير الظواهر الفكرية, والثقافية, والأدبية, على السواء، فستتجلى أمام أعيننا ضخامة الصعوبة التي يواجهها الدارس للأدب العربي, وهو تحت ثقل ظاهرة التفاعل بين الأدب والمجتمع، إذ كثيرا ما يتوقف فهم الأدب فهما حقيقيا على فهم المجتمع الذي نبع هذا الأدب منه .

وإذ نلاحظ أن هنالك مشاكل أخرى، قد تكون خارجية, وقد تكون داخلية, يواجهها مؤرخ الأدب العربي, أي أن هنالك مشاكلا تنبع من صميم دراسات العرب الأدبية نفسها، على الرغم من أنهم تفوقوا على غيرهم في تأليف المراجع والمؤلفات, والتراجم, للأدباء والشعراء والعلماء، ذاهبين في ذلك كله مذاهب شتى لا حصر لها.

وقد ظلت الأمور تجري على هذا المنوال حتى الحصر الحديث, عندما جاءت النهضة حاملة معها مفاهيم جديدة للأدب وتاريخه, وهاهنا لعب الاستشراق بالنسبة للأدب العربي دورا حاسما, وإن كان العرب قد ألفوا كثيرا من الكتب التي تدل على تفوقهم في هذا الميدان, ومن ذلك فإنهم لم يتعرضوا لمعضلة تاريخ أدبهم ذاتها, إلا بعد أن تأثروا بالاستشراق في هذا المجال, وأول من جاء بهذا التأثر هو حسن توفيق العدل (1892- 1909) الذي تعلم بالأزهر، وكان أستاذا للغة العربية في المدرسة الشرقية ببرلين لفترة من الزمن .

لقد حاول علماء الاستشراق أن يحيطوا بالأدب العربي إحاطة كاملة, فبحثوا في كل ما يتعلق به معتبرين تاريخه أساسا لذلك, ومن هنا واجهوا معضلة تأريخه ونشأته, وتكوينه, ومنزلته, وتطوره, وأرادوا أن يحلوها, فقسموا هذا الأدب إلى عصور, وكأن هذا أمر جديد فيه بوجه عام، إذ لم يقم مؤرخوه القدامى بتقسيمه على هذا الأساس، بل كانوا يركزون جهودهم على وضع الأدباء في إطار تاریخی حسب مواليدهم حينا، أو وفاتهم أحيانا,

فالمستشرقون هم الذين حلوا مشكلة التحقيب في الأدب العربي الحديث، وتأثر بهم علماء العرب المحدثون كل التأثر, ومن هنا نرى بروکلمان يقسم تاريخ الأدب العربي إلى خمسة عصور رئيسية وهي:

1- عصر ما قبل الإسلام ، ويبدأ من نقطة لا يمكن تحديدها الآن حتى ظهور الإسلام.

2 - عصر ظهور الإسلام حتى نهاية الأمويين عام 700 م.

3- عصر الدولة العباسية حتى نهايتها على أيدي المغول عام 1208م .

4 - عصر ما بعد سقوط بغداد حتی مجیء بونابرت إلى مصر عام 1798 م.

5- عصر بعث الجديد في القرن الماضي حتى العصر الحاضر, ويختلف نیکلسون عنه فيقسم تاريخ الأدب العربي إلى ستة عصور رئيسية وهي :

1- عصر ما قبل الإسلام ويبدأ من نقطة زمنية يصعب تحديدها حتى ظهور الإسلام .

2 - عصر محمد ص والقرآن الكريم.

3- عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية .

4 - عصر الدولة العباسية وخلفائها .

5- عصر العرب في أوربا ودورهم فيها .

6- عصر ما بعد الفتح المغولي حتى عصرنا الحاضر.

ويذهب ناللينو فيقسم تاريخ الأدب العربي إلى ستة عصور أيضا وهي :

1- العصر الجاهلي, مبتدئا بزمن يستحيل تحديده حتى ظهور الإسلام .

2- العصر العربي الإسلامي, مبتدئا بظهور الإسلام ومنهيا بسقوط الدولة الأموية عام 750 م.

3 - العصر العباسي الأول, يستمر من سقوط الأمويين حتى عام 1008م.

4 - العصر العباسي الثاني, و يبدأ من عام 1008 م. ومستمر حتى سقوط بغداد في أیدی المغول عام 1258م.

5- عصر الانحطاط, ويبدأ من عام 12۵8 م. حتى عام 1800 م.

6 - عصر البعث الجديد, ويبدأ من جلوس محمد على بك على عرش مصر عام 1800م. ويستمر حتى الآن.

وقد تبين لنا مما تقدم, أن الاختلاف بين هؤلاء كما هو الحال نفسه بين غيرهم فيما يتعلق بتحقيب الأدب العربي بسيط للغاية, وهم وسواهم من زملائهم يأخذون عنصر التحولات السياسية, أساسا للقيام بتقسيم تاريخ الأدب العربي نفسه إلى تلك العصور التي تبناها علماؤنا المحدثون, وأفردوا مؤلفاتهم الخاصة بكل عصر من عصوره .

ولو أخذنا أيا من الدارسين العرب المحدثين للأدب العربي وتاريخه, لبدا لنا أثر الاستشراق في هذا المجال واضحا وجليا كل الجلاء, ولا حاجة بنا الآن أن نعدهم عدا, ونحصيهم إحصاء، لأن الأمر قد اتضح لنا حينما كنا مع علمائنا المحدثين من قبل، ولا داعي للتكرار في هذا المكان بالذات .

وإذا كان أثر الاستشراق في الأدب العربي المعاصر واضحة بحله مشكلة التحقيب في تاريخه, فقد ترتب على ذلك أثره البالغ أيضا بحله مشكلة التبويب، إذ قام علماؤه المستشرقون بتنظيم العلوم العربية, وتنسيق مادتها على أساس علمی منهجی سلیم، ولهذا التأثير أهمية بالغة فيه، لأننا إذا رجعنا إلى المراجع العربية القديمة فسنراها خليطا كبيرة من المسائل الثقافية الشاملة, والمعارف العامة المختلفة، حيث يخلط الأدب باللغة والفقه، وما إلى ذلك, مما يتطلب جهدا بالغا من المرء ليكشف عن موضوع دون الآخر, ومهمة المراجع الأساسية هي أن تسهل مهمة الباحث في الكشف عن المادة التي يسعى إلى تحصيلها, لكي يقوم بعد ذلك ببحثها وغربلتها, ونقدها.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه المراجع تتطلب جهدا شاقا من الدارسين للآداب العربية، ولذلك كله يجب أن تأخذ طريقها إلى الإحياء على أسس علمية سليمة، مع العناية الكاملة بفصل كل علم عن الآخر، ثم القيام بالتبويب لكل علم على حدة تبويب منهجيا سليمة, وقد بذل الاستشراق في هذا السبيل جهد مشكورا، ولا بد أن يؤدي مثل هذا المجهود الضخم خدمة جليلة لمؤرخي الأدب العربي, وسهل طريقهم أمام مهمتهم, ويحفظهم من الانحراف، قبل أن يصلوا إلى طريقهم السوي، وهو عمل جليل لا يمكن تقديره بشیء, وخاصة في أدب مثل أدب العرب الذي له علاقة وثيقة العرى بالعلم والفلسفة والدين على السواء.

وهاهنا لعب الاستشراق مرة أخرى دوره، وذلك عندما اهتم بحل مشكلة التبويب فأسدي بهذا الدور الهام خيرا كثيرا إلى الأدب العربي المعاصر, ونجد كل الباحثين العرب المحدثين ينهجون نهجه، ويسيرون سيرته, متأثرين به كل التأثر، وإذا أردنا أن نتأكد مما نذهب إليه, فيكفينا أن نمسك أي كتاب لعالم عربي محدث جاد في الأدب العربي لنرى ذلك بأعيننا, ولن نذهب بعيدا في هذا الصدد ونعدد الكتب التي قام المستشرقون بتبويبها, فسنجدها كثيرة, وقد أضافت للتراث العربي خدمة جليلة.